

شخصية العدد: " الشيخ الرماصي " حياته وآثاره

« هذا الموضوع محاضرة ألقاها الدكتور بوعبد الله غلام الله
خلال ملتقى ولغني نظمته الوزارة بولاية غليزان »
- الشيخ الرماصي وأعلام غليزان -
يومي 10 - 13 جويلي 2013

الإمام أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن المالكي الرمّاصي القلعي الراشدي المعسكري الجزائري

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إن تأريخ الأمم والشعوب لأعلامها وعلمائها
مظهر من مظاهر الوفاء، واستمرار حلقات التواصل
بين الأجيال، وحرص على الاستفادة من معين
الرجال وتجاربهم.

وقد عنيت الأمة الإسلامية عبر عصورها
المتعاقبة عناية كبيرة بترجمة أعلامها رجالا ونساء
وكان للجزائر حظ من ذلك كله من خلال كتب
التاريخ والتراجم والمشيخات والأثبات ونحو
ذلك.

وثمة شيء يلفت النظر، وهو أن ثمة أعلاما
قد اشتهرت أسماؤها على ألسنة الناس، وامتألت بها
بطون الكتب، ولكنها لم تنل من العناية والترجمة
والتعريف ما يتناسب مع مكانتها وتأثيرها، وهذا
شيء يدعو إلى التساؤل والاستفسار من جهة
ويدعو كذلك إلى تشمير سواعد الجهد لنفض الغبار
عن هذه الشخصيات وإعادة الاعتبار لها.

وفي هذا السياق يأتي الملتقى الوطني للتعريف
بالشيخ العلامة مصطفى الرماصي وأعلام غليزان
وما حولها من المراكز العلمية والحضارية، ليكون
لبنة في هذا التراكم العلمي المعرفي والتواصل
الحضاري.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الملتقى في التعريف
بهذا العلم وأمثاله رحمهم الله.

فمن هو الإمام الرماصي، وما هي أهم
محطات حياته؟

1 - اسمه ونسبه مولده

هو الإمام أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن
مؤمن المالكي الرمّاصي القلعي الراشدي المعسكري
الجزائري⁽³⁰⁴⁾.

304 - انظر: تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (560/2)
إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي (374/4).

ولا نعرف تاريخ ميلاده بالضبط، إلا أنه توفي سنة 1136هـ أو 1137هـ عن أكثر من تسعين عاما⁽³⁰⁵⁾، فيكون مولد قبل عام 1046هـ.

نشأته العلمية وشيوخه

تلقى الرماصي مبادئ العلوم عن علماء بلده وما حولها من الحواضر والمراكز العلمية في الجزائر وخارجها، وقد أشار إلى ذلك المهدي البوعبدلي بقوله: ((التحق بمعاهد قلعة هوارة فمازونة وتيارت، وختم رحلته في طلب العلم بفاس ثم القاهرة))⁽³⁰⁶⁾.

شيوخه

ما من شك أن الشيخ الرماصي تتلمذ على عدد من الأئمة الأعلام في الجزائر، وأثناء رحلته إلى فاس ومصر...

فمن شيوخه في الجزائر

- 1 - والده عبد الله بن مؤمن، الذي يعتبر من فقهاء عهده، كما ذكر المهدي البوعبدلي⁽³⁰⁷⁾.

2 - الشيخ محمد بن علي الخروبي القلعي، الذي أخذ عنه العقائد السنوسية⁽³⁰⁸⁾.

3 - الشيخ محمد بن الشارف المازوني، روى عنه الرماصي صحيح البخاري، وهو الذي أسس المعهد الفقهي لمازونة⁽³⁰⁹⁾.

4 - الشيخ سيدي أبو زيد عبد الرحمن التوجيني الراشدي⁽³¹⁰⁾.

5 - الشيخ محمد الصحراوي، أخذ عنه الشيخ الرماصي طريق أهل التصوف⁽³¹¹⁾، وهو نزيل قلعة مامون ببلاد منداس، ودفن بها⁽³¹²⁾.

6 - الشيخ عمر التراري المشرفي، وهو من أسرة المشرفي التي توارث أفرادها العلم كابرا عن كابر، وكان مقر الأسرة ومعهدا العلمي في مدينة الكرط قرب مدينة معسكر⁽³¹³⁾.

(308)- المرجع نفسه ص 46.

(309)- المرجع نفسه ص 47-48

(310)- المرجع نفسه ص 48

(311)- المرجع نفسه ص 46

(312)- المرجع نفسه ص 49

(313)- انظر: شجرة النور لمحمد مخلوف (1/304).

(305)- انظر: تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (560/2) فهرس الفهارس للكتاني (507/1).

(306)- الفقيه الحافظ مصطفى الرماصي الراشدي الجزائري، للمهدي البوعبدلي ص 46.

(307)- المرجع نفسه ص 45.

ومن شيوخه في مصر

7- الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني، الفقيه الإمام العلامة، شارح مختصر خليل، (ت 1099هـ/1687م)⁽³¹⁴⁾.

8- الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي، الفقيه العلامة، له شرح كبير على مختصر خليل، وآخر صغير، توفي سنة 1101⁽³¹⁵⁾.

تلاميذه

عاد الشيخ الرّماصي إلى بلده واستقر في مدينة معسكر، فبدأ ممارسة نشاطه في نشر العلوم والمعارف، في رباط بناه بجهده الخاص، ويمكن الجزم بأن طلبته كثيرون، ولكن لم يصلنا من أسمائهم سوى القليل:

1- تلميذ لا نعرف اسمه، ولكنه ينحدر من أسرة أندلسية لاجئة إلى الجزائر، وكل ما يعرف عنه أن شيخه الرّماصي قد غضب عليه بسبب مكابرتة في مسألة علمية، وقد رد عليه الرّماصي ردا قويا بأسلوب فيه كثير من الصرامة والشدّة⁽³¹⁶⁾.

2- الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن الشريف الجعدي موطنا، من عمالة الجزائر⁽³¹⁷⁾.

3- الشيخ علي، والد الشيخ محمد أبي طالب المازوني، يستفاد ذلك مما جاء في بعض الأسانيد العلمية أن الشيخ أبا طالب المازوني أخذ بعض كتب الفقه المالكي عن أبيه علي، عن الشيخ مصطفى بن عبد الله الرّماصي، عن الخرشي والزرقاني⁽³¹⁸⁾.

4- الشيخ محمد بن عبد الله بن أيوب المعروف بالمنور التلمساني دفين مصر، العلامة الأديب المسند الرحالة، روى عن الرّماصي، وتوفي بمصر بعد رجوعه من الحج⁽³¹⁹⁾.

آثاره العلمية

يبدو أن الشيخ الرّماصي لم يهتم بالتأليف كاهتمامه بالتعليم - على عادة الكثير من علماء الجزائر - ومع ذلك، فقد حفظ لنا التاريخ بعض أعماله وهي:

314- انظر: المرجع نفسه (1/317).

317- انظر: المرجع نفسه (1/507).

318- انظر: المرجع نفسه (1/507).

319- انظر: المرجع نفسه (1/507).

315- انظر مقاطع من هذا الرد في مقال: الفقيه الحافظ مصطفى الرّماصي الراشدي الجزائري، للمهدي البوعبدلي ص 54 - 55

316- انظر: فهرس الفهارس للكتاني (1/507).

1 - كفاية المريد في شرح عقيدة التوحيد، فرغ منه سنة 1124هـ، شرح فيه متن السنوسي أم البراهين⁽³²⁰⁾.

توجد منها نسخ مخطوطة في الجزائر، تونس، مصر، السعودية وألمانيا.

2 - حاشيته على شرح التتائي لمختصر خليل، وهي أهم مؤلفاته وبها اشتهر شرقا وغربا، حتى إن البعض يصفه بأنه: صاحب الحاشية الكبيرة على شرح التتائي.

وتوجد منها نسخ خطية كثيرة في خزائن ومكتبات عالمية في الجزائر، المغرب، السعودية، مصر وبريطانيا

3 - حاشية على شرح الخرشي على مختصر خليل. توجد منها نسخ مخطوطة في الجزائر والسعودية.

4 - رسالة في العتاب بخصوص مسائل فقهية أولها: (الحمد لله، هذا ما كتبه الشيخ المصطفى الرماصي لسيدي أحمد بن عامر..). - توجد منها نسخة مخطوطة في المغرب.

5 - أجوبة فقهية، أجاب فيها عن أسئلة عالم تطوان الشيخ سيدي علي بركة، عن مسائل في مختصر الشيخ خليل. توجد منها نسخ مخطوطة في المغرب، والسعودية.

(320)- انظر: إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي (4/374).

6 - قصيدة رثائية قالها في شيخه عمرو الترابي بن أحمد المشرفي تحتوي 150 بيتا.

7 - تأليف في المنطق، نسبه إليه الشيخ أبو رأس⁽³²¹⁾.

وفاة الإمام الرماصي وثناء الناس عليه

ذكر الشيخ الحفناوي أنه لم يقف على تعيين مولد الشيخ الرماصي ولا وفاته، ثم قال: ((غير أنه كان في حدود أوائل القرن الثاني عشر بيقين بمسندات لا شبهة فيها ولا مين))⁽³²²⁾، ولكن مصادر ذكر أنه توفي سنة 1136هـ وهو ما يوافق 1724م، وقد جاوز التسعين⁽³²³⁾، بينما ذكر المهدي البوعبدلي أن وفاته كانت عام 1137هـ.

وقد كانت وفاته في رُماسة الواقعة في معسكر قريبا من حدود ولاية غليزان، وقبره الآن معروف.

مكانة الرماصي الفقهية

سلك العلامة مصطفى الرماصي منهجا متميزا في حاشيته، تميز بالدقة العلمية في تحرير المسائل، واختيار الأقوال والآراء، تدل على تمكنه

(321) - فتح الإله ومنته، لأبي راس الناصري ص 54

(322) - تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (2/561)، ومما يؤكد ذلك أنه فرغ من تأليف كتابه "كفاية المريد على شرح عقيدة أهل التوحيد" سنة 1124 هـ

(323) - شجرة النور لمحمد مخلوف (1/334)، فهرس الفهارس (2/507)

من فروع المذهب وأصوله، واطلاعه على مصادره ودواوينه، حتى غدت مصدرا معتمدا عند المتأخرين يرجعون إليه في تحرير مسائل المذهب، ومعرفة الأقوال المشهورة والمعتمدة.

يقول النابغة الغلاوي في سياق الكتب والمصادر المعتمدة في المذهب المالكي:

واعتَمَدُوا حَاشِيَةً لِمُصْطَفَى

عَلَى التَّتَائِي كَسِرَاجٍ مَا أَنْطَفَأَ⁽³²⁴⁾

وإن تتبعنا سريعا للمكتبات الإلكترونية المتاحة كالموسوعة الشاملة، ليؤكد ما ذكره النابغة الغلاوي من اعتماد العلماء المحققين الذين جاءوا بعد الرماصي على هذه الحاشية البديعة المفيدة الدقيقة، وهذه بعض المؤشرات الدالة على ذلك:

- اعتمده الإمام محمد بن عرفة الدسوقي في حاشية للشرح الكبير على مختصر خليل للدردير، الشيخ محمد أحمد السبناوي المعروف بالأمر في كتابه الإكليل شرح مختصر خليل، ورمز له بحرف (ر)، الشيخ محمد بن الحسن البناني (صاحب كتاب ((الفتح الرباني فيما ذهل عنه عبد الباقي الزرقاني))، ورمز له بـ (طفي)، الشيخ محمد الطالب في شرحه على المختصر المسمى (فتح الجليل في شرح مختصر خليل)، والإمام الخرشبي في شرح مختصر خليل،

(324)- نظم المعتمد من الأقوال والكتب في المذهب المالكي، للنابغة الغلاوي ص 121

والصاوي في حاشيته على الشرح الصغير، والشيخ في منح الجليل، وفي فتح العلي المالك، والشيخ رشيد رضا في تفسير المنار، والشيخ محمد بن علي بن حسين مفتي المالكية بمكة المكرمة في كتابه تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية، والشيخ الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي في الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي نقلت عنه الموسوعة الفقهية الكويتية، وأثبتت ترجمته ضمن الفقهاء والعلماء، كما اعتمدته هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ومجلة البحوث الإسلامية التي تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد السعودية.

صفاته وأخلاقه

عرف الشيخ الرماصي بالأخلاق الحسنة والخلال المحمودة، فيه، فمن أخلاقه رحمه الله:

1 - الهمة العالية والحرص على طلب العلم

2 - سعة العلم والتضلع فيه

3 - الذكاء وتوقد الفكر

4 - المتانة في الدين والغيرة على الشرع

5 - احترامه للناس

6 - السّماحة ولين الجانب وطيب السريرة

7 - الثقة بالنفس وحرية الرأي

إلى غير ذلك من الصفات والخلال التي وصفه
بها مترجموه، وتظهر من خلال أجوبته ومؤلفاته

ثناء الناس عليه

أدرك العلماء قيمة العلامة الرماصي، فأعجبوا
به، وانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه، حتى قيل فيه:
(من أذعنت له في وقته الأقران، ولم يختلف في
فضله وسعة علمه اثنان)⁽³²⁵⁾، ومما وصلنا من هذا
الذكر الجميل والثناء العطر ما يلي:

قال عنه أحد شيوخه: ((أنت المذهب))⁽³²⁶⁾.

قال الشيخ الحفناوي: ((العلامة المتفنن
المحقق والجهد النقاد المدقق، من أذعنت له في
وقته الأقران، ولم يختلف في فضله وسعة علمه اثنان
وتراحم على بنات فكره وعرائس سره الداني من
أهل العلم والقاصي))⁽³²⁷⁾.

قال عنه محمد مخلوف: ((الإمام الفقيه،
العلامة المحقق، العمدة الفهامة، المؤلف
المدقق))⁽³²⁸⁾.

قال الدسوقي: ((العلامة الشيخ مصطفى
الرماصي محشي التتائي))⁽³²⁹⁾.

ونختم هذه الشهادات بثناء الأمير عبد القادر
الجزائري على الرماصي وعلى منطقة الراشدية
وعلمائها حيث قال ((وناهيك بوطن خرج منه
العلامة شيخ الأسلاف محمد مصطفى الرماصي
ومن حاكاه من تلامذته))⁽³³⁰⁾.

الإطار الفكري والمرجعي لعلماء المنطقة

هذه نبذة من حياة الإمام الرماصي، هذه
القائمة العلمية المتميزة التي قدمت قيمة مضافة في
الحياة العلمية عموما وفي الفقه المالكي خصوصا
التي نجزم بأنها لم تتخرج من فراغ أو بمحض
الصدفة، بل هو حلقة في سلسلة منيرة من الأئمة
الأعلام الذين شكلوا عبر التاريخ الهيئة العلمية لهذه
الحاضرة الثقافية، التي تتميز بجملة من الخصائص
والمزايا ومنها:

1 - المحافظة على المرجعية الفقهية للمجتمع

الجزائري خصوصا والمنطقة المغاربية عموما وتتمثل
بالخصوص في التمسك بمنهج أهل السنة والجماعة
في التوحيد اعتمادا على مدرسة الإمام أبي الحسن
الأشعري رضي الله عنه، والتزام مذهب الإمام مالك

325 - تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (1/560).

326 - المرجع نفسه (1/560 - 561)

327 - تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (1/560).

328 - شجرة النور لمحمد مخلوف (1/334).

329 - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير على مختصر خليل
(2/1).

330 - الفقيه الحافظ مصطفى الرماصي الراشدي الجزائري، للمهدي
البوعبدلي ص 56.

رضي الله عنه في الفقه وسلوك طريقة الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه في التصوف والتركبة. يظهر ذلك في المقررات الدراسية في المدارس والمعاهد والزوايا التي يمكن الوقوف عليها في كتب التاريخ والتراجم والأثبات والرحلات وغيرها من مصادر التاريخ العلمي والثقافي للمنطقة.

2 - روح التسامح والتشاقف والتفتح على الآراء والمذاهب، ويظهر جليا من خلال مؤشرات متعددة منها الرحلة في طلب العلم التي قادت علماء المنطقة إلى المشرق والمغرب، والتي قادت علماء المغرب والمشرق إلى المنطقة.

3 - مقاومة الدخيل الذي ينافي حرية المجتمع واختياراته ومبادئه، فقد قاومت المنطقة كل أشكال الاستعمار العسكري وخصوصا الإسباني والفرنسي، كما حافظت على الموروث العلمي والخصائص الثقافية من أي تأثير خارجي يغير معالمها ويلغي خصوصياتها.

4 - استمرار التواصل العلمي والروحي بين الأجيال، نقرأ ذلك في العدد المعتبر من الشخصيات التي أثرت في مختلف مناحي الحياة في كل المراحل التاريخية لهذه المنطقة، ولذلك فقد حافظ العلماء على مشيختهم وأسانيدهم العلمية والروحية.

5 - الإسهام في إثراء الإنتاج العلمي، فقد شارك علماء المنطقة في التعليم والتأليف والتربية والإصلاح، ومن أراد التدليل على ذلك فلينظر إلى العدد الكبير من الزوايا والمدارس والمعاهد العلمية التي أسسها أهالي المنطقة، ولينظر إلى الإنتاج العلمي المتميز في مختلف العلوم المتداولة في كل فترة من فترات التاريخ.

6 - التزام منهج الوسطية والاعتدال، فهي مدرسة تعتمد النقل وتستثمر العقل، تحكم قواعد الشريعة وتستشير بمعاني الحقيقة، تعمر مناحي الحياة المختلفة ولا تغفل محاسن الزهد، تتسامح مع المخالفين ولا تسمح في حقوق الوطن والدين...

7 - تأثير علماء المنطقة على غرار علماء الجزائر في الحواضر والمدارس العلمية الكبيرة، فكتاب أبي عبد الله المقري في القواعد يعد من المصادر الرئيسة في هذا الفن، وكتب السنوسي كانت مقرا في أهم المؤسسات العلمية في المغرب والمشرق، وكتابات عبد الرحمن الأخضر كانت وما تزال مرجعا علميا في حلقات العلم ومجالسه، وآراء الرماصي الفقهية واختياراته واجتهاداته اعتمدها علماء المذهب في المشرق والمغرب.

واعتَمَدُوا حَاشِيَةً لِمُصْطَفَى

عَلَى التَّنَائِي كَسِرَاجٍ مَا انْطَفَأَ

وبعد، فهذه ملامح ونُبْدٌ بين يدي هذا الملتقى العلمي الذي نتطلع فيه إلى مزيد من إجلاء هذه النقاط وغيرها، من العلماء والأساتذة والباحثين، ولكننا نرجو كذلك أن يستمر البحث والتنقيب عن هذا الموروث الحضاري الكبير الذي يستدعي جهود الجميع وعلى مختلف المستويات والأصعدة، لإحصاء هذا التراث المادي والمعنوي، وجمعه

وتبويبه، وللمحافظة عليه من عوامل النسيان والتلف والضياع، ثم لإحيائه وتقديمه للأجيال، وحتى يكون عاملاً من عوامل التنمية الشاملة المستدامة التي تنطق من روح الماضي وأصالته وأمجاده، مع الوعي بتحديات الحاضر وتناقضاته، واستشراف المستقبل وآماله.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.